مذكرة عن خمسة مواقع من أول

الدور الحجري الحديث في سورية الداخلية

بقلم : و . ج . ڤان لير وهـ . دوكونتانسون

تلخيص عن الانكليزية بقلم : عدنان البني

آ — مدخل

كان علم الآثار في سورية ، إلى وقت قريب جداً ، متجهاً كله لدراسة العهود التاريخية وممالك المدن التي أسهمت مساهمة حاسمة في الحضارة الإنسانية . ولكننا ما نزال بحاجة للكشف عن جذور هذه المنجزات ومعرفة كيفية انتقال الصيادين المتنقلين إلى القرى المستقرة التي تحولت فيما بعد إلى مدائن .

ومنذ الحرب العالمية الثانية ، نشط البحث في مسألة استقرار الإنسان والتكنيك المرتبط بالأسلوب الجديد للحياة كالزراعة وتدجين الحيوانات في أكثر بلاد الشرق الأدنى ، إلا في سورية التي ظل هذا النشاط فيها محدوداً . ومع ذلك فإن آخر مراحل تطور الإنسان في انتاج الطعام عرفت في حفريات سهل العمق ورأس الشمرة وتل سوكاس ووادي العاصي الأوسط . ولكن المساحات المنقبة هي من الصغر بحيث لا تعطي فكرة يعوّل عليها في هذا المجال .

إن ما نعرضه فيما يلي من اللقى السطحية المجموعة من بعض مواقع حوضة دمشق وضفاف الفرات ، قد تسهم في حل تلك المسألة الشائكة التي بدأ عدد من العلماء بمحاولة حلها .

ب — تنوع الدور الحجري الحديث في سورية الداخلية

هناك صفة عامة تميز الدور الحجري الحديث في الشرق الأوسط ، الا وهي التنوع وعدم الثبات ، سواء في الزمان أو المكان . فأسلوب البناء والفن والأدوات الصوانية والفخار تختلف أو تنتفي من موقع لآخر ، أو بين حين وآخر . ولا شك في أن من أسباب التنوع كون إنسان الدور الحجري القديم كان جامعاً للطعام ، على حين أن إنسان الدور الحجري الحديث هو بصورة رئيسية منتج للطعام . ومع هذا فإن ذلك لا يفسر منشأ الأشياء ، إذ أن هذا التغير في المظهر حصل نتيجة لتطور سيكولوجي سبب بدوره تقلب الإنسان . ومن أجل ذلك قد لا يفيد الإحصاء في مجال الدور الحجري الحديث إذ ليس فيه من جيل يشابه الذي قبله ، وقد سبّب تعدد المهن فيه اشتباك عوامل وتفاعلات عديدة .

وعند دراسة مدنية من مدنيات الدور الحجري الحديث لا نعرف بالتفصيل ما تفرع وما تولد منها ، فقصارانا أن نضعها في مكانها المناسب . والشرق الأوسط هو بؤرة مدنية حجرية حديثة ذات تنوع كبير . وفي الوقت نفسه ذات تفاعل متبادل .

ومما يربك الباحث في الدور الحجري الحديث بالشرق الأوسط ، أن من المألوف في هذا الدور عودة الإنسان في صناعة أدواته الحجرية ، إلى أساليب الدور الحجري القديم .
والأماكن التي استوطنها إنسان الدور الحجري الحديث بصورة دائمة هي على العموم ذات تربة حال لونها إلى الرمادي أو الأسود . أما الأماكن التي أقام فيها موقتاً فلم يتغير لونها أو تغيّر قليلاً .

وبينما حصل الانتقال من مجتمع الصيد في الدور الحجري الوسيط إلى مجتمع انتاج الطعام في الدور الحجري الحديث في المناطق نصف السهبية أو الصحراوية في الشرق الأوسط ، فإن سورية الداخلية ظلت منطقة مستنقعية فيها مجتمعات مزارعين — رعاة — صيادين . ولكنها تتصف بتنوعها الكبير . والدليل على ذلك المواقع الخمسة التي سنذكرها فيما يلي :

ج — المواقع

١ — سهل الصحراء (حوضة دمشق) :

— والصحراء المقصودة هنا هي صحراء الديماس — وفيها مواقع من الدور الحجري الحديث ،

ب — تنوع الدور الحجري الحديث في سورية الداخلية

هناك صفة عامة تميز الدور الحجري الحديث في الشرق الأوسط ، الا وهي التنوع وعدم الثبات ، سواء في الزمان أو المكان . فأسلوب البناء والفن والأدوات الصوانية والفخار تختلف أو تنتفي من موقع لآخر ، أو بين حين وآخر . ولا شك في أن من أسباب التنوع كون إنسان الدور الحجري القديم كان جامعاً للطعام ، على حين أن إنسان الدور الحجري الحديث هو بصورة رئيسية منتج للطعام . ومع هذا فإن ذلك لا يفسر منشأ الأشياء ، إذ أن هذا التغير في المظهر حصل نتيجة لتطور سيكولوجي سبب بدوره تقلب الإنسان . ومن أجل ذلك قد لا يفيد الإحصاء في مجال الدور الحجري الحديث إذ ليس فيه من جيل يشابه الذي قبله ، وقد سبّب تعدد المهن فيه اشتباك عوامل وتفاعلات عديدة .

وعند دراسة مدنية من مدنيات الدور الحجري الحديث لا نعرف بالتفصيل ما تفرع وما تولد منها ، فقصارانا أن نضعها في مكانها المناسب . والشرق الأوسط هو بؤرة مدنية حجرية حديثة ذات تنوع كبير . وفي الوقت نفسه ذات تفاعل متبادل .

ومما يربك الباحث في الدور الحجري الحديث بالشرق الأوسط ، أن من المألوف في هذا الدور عودة الإنسان في صناعة أدواته الحجرية ، إلى أساليب الدور الحجري القديم .

والأماكن التي استوطنها إنسان الدور الحجري الحديث بصورة دائمة هي على العموم ذات تربة حال لونها إلى الرمادي أو الأسود . أما الأماكن التي أقام فيها موقتاً فلم يتغير لونها أو تغيّر قليلاً .

وبينما حصل الانتقال من مجتمع الصيد في الدور الحجري الوسيط إلى مجتمع انتاج الطعام في الدور الحجري الحديث في المناطق نصف السهبية أو الصحراوية في الشرق الأوسط ، فإن سورية الداخلية ظلت منطقة مستنقعية فيها مجتمعات مزارعين — رعاة — صيادين . ولكنها تتصف بتنوعها الكبير . والدليل على ذلك المواقع الخمسة التي سنذكرها فيما يلي :

ج — المواقع

١ — سهل الصحراء (حوضة دمشق) :

— والصحراء المقصودة هنا هي صحراء الديماس — وفيها مواقع من الدور الحجري الحديث ،

متفرقة ومجتمعة والحجارة المستخدمة في صناعة الأدوات هي المتوفرة محلياً من صوان وبازلت وحجر كلسي . ويستدل على بعض المواقع من انخفاض في التربة أو من تجمع الحجارة الكبيرة .

والصناعة الحجرية تقوم على أساس الشظايا مع قليل من النصلات ويكثر فيها « لب الحجر » وليس هناك من رؤوس رماح . كما أن فيها عناصر مناجل ومدى ومكاشط مسننة . وأهم الأدوات هي الأدوات الكبيرة المصنوعة من الصوان غير النقي من مكاشط شبيهة بالمكاشط الموسترية مع بعض الفؤوس والأزاميل والأقراص ، وبعضها يستخدم لفلاحة الأرض . وهناك علاوة على ذلك مشاحذ وأجران بدائية الصنعة (الأشكال I ، ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) [١] .

٢ – نبع بردى :

بمحاذاة نبع بردى هناك موقع سطحي تربته حمراء ، أدواته الحجرية مصنوعة من صوان صغير وهي مثاقب « وحزوز » ورؤوس رماح . ويتجلى التنويع ودقة الصفة في المكاشط . وهناك الفأس المجلوّة (الشكل V) التي تؤكد الدور الحجري الحديث . وهذه الأدوات على الجملة هي أدوات سكان غابات – صيادين كأمثالهم على ضفاف العاصي وفى الغاب الخ .

٣ – صيدنايا :

الموقع الذي رأيناه في هذه المنطقة هو عبارة عن طبقـــة غير ثخينة بسبب التحات ، الأدوات التي وجدت فيها مصنوعة من الصوان الناعم والخشن ، ومنها أدوات حجرية دقيقة من شفرات وأهلّة و « حزوز » ومكاشط دقيقة وأنواع من المخارز ورؤوس الرماح وبعض شفرات مناجل ، وفؤوس ، وأزاميل مكسورة (الشكل VI) . وهذه الأدوات تشبه في شكلها أدوات الدور الحجري القديم الأعلى والوسيط وتدل على محيط غابات .

٤ – تل الرماد (قطنا) :

يقع هذا الموقع على رابية بازلتية قرب وادي قطنا وهو مؤلف من طبقة غير كثيفة . وفي الوادي صوان من دور البليستوسين استخدم لصنع الأدوات الحجرية . وتربة الموقع كثيرة الحجر ، مما يحتمل معه وجود مساكن ، كما وجدت في هذا الموقع أوان فخارية عريضة الكعب مسوّاة من الداخل والخارج ، من طين مائل للبياض ، خشن . وهناك فخار ملمّع مماثل لفخار الدور الحجري الحديث الذي عثر عليه في السويات المقابلة في رأس الشمرة أو تل سوكاس وفي جبيل (الشكل ٧ ، ١ – ٣) . ووجدت عناصر مصنوعة من العظام والأصداف هي من مميزات أقدم القرى الشكل (VII ، ٤ ، ٦) .

(١) الأشكال مع شروحها منشورة في القسم الأجنبي من المجلة مع المقال الأصلي (المعرّب) .

وقد وجدنا مجارش وفؤوس من البازلت . أما الأجران فهي من الحجر الكلسي القاسي ، أو من البازلت . وهناك فؤوس من مختلف أنواع الصوان والحجر الكلسي . والأمر نفسه بالنسبة لبقية الأدوات كالأزاميل والمعاول الخ . أما رؤوس الرماح والخارز فهي من صوان ناعم أسود وبني وأبيض ملوّن مجلوب من مكان آخر . وهناك أيضاً أدوات صغيرة من الأوبسيديين « أي البلور البركاني » . أما الحراب المقذوفة فهي من النوع المعروف في الأناضول وسورية الشمالية ولبنان وفلسطين . وقد أمكننا تمييز ثلاثة أنواع من شفرات المناجل .

واللقى السطحية في تل الرماد أكثر ما تكون ارتباطاً بأول الدور الحجري الحديث في لبنان . أما ارتباطها الواضح بفلسطين فلا بد أنه نتيجة تفاعل بين التقاليد الطاحونية في فلسطين والقرى السورية .

٥ – بقراص (الفرات الأوسط) :

قد أدرجنا هذا الموقع للمقارنة بين مجتمع الصيادين – الرعاة في حوض الفرات ومجتمعات المزارعين – سكان الغابات – الصيادين في حوض دمشق . وفي بقراص موقع صغير قائم على مرتفع فوق الهضبات المطلة على وادي الفرات ، وفي هذا الموقع آثار مساكن كبيرة (١٠×١٠ م) مربعة ومستطيلة ، كانت مبنية على الراجح بالقصب أو الخشب . وفيه عناصر مصنوعة من العظم وأدوات حجرية مجلوّة ، وقصعات من المرمر الأبيض المجلو وبلطات من حجر الشيست المجلو أيضاً مع رأس مغزل من الحجر نفسه . والأدوات الصوانية المكتشفة في هذا الموقع مصنوعة من صوان مختلف الألوان من مرامل الفرات . وهناك أيضاً أدوات من الأوبسيديين ، وحراب أكبر من النماذج المكتشفة في قطنا ، ومثاقب . وتكثر المكاشط من جميع الأنواع ويندر وجود شفرات المناجل ولم يعثر إلا على فأس مجلوّة واحدة وبلطتين مما يدل على انعدام الأدوات المستخدمة في الغابات والزراعة .

وليس هناك من شبيه معروف لموقع بقراص . أما كثرة أدوات الأوبسيديين فهي تدل على علاقة وشيجة بحوض الفرات الأعلى . وتثبت ذلك قصعات المرمر التي هي من مميزات موقع جرمو شمالي العراق بالإضافة إلى دلائل أخرى على ذلك التشابه .

تعريب عدنان البني